

التدخل الغيبي بين سنن الله ومسؤولية الإنسان قراءة قرآنية وروائية فلسفية في ضوء مدرسة أهل البيت

بقلم

د. مصطفى سوادى جاسم

باحث في مركز الفيض العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية



يُعدّ سؤال "لماذا لا يتدخل الله مباشرة لنصرة المظلومين؟" من أكثر الأسئلة عمقًا وإيلاّمًا في الوعي الديني، لا سيما في أزمنة اشتداد الظلم وتكاثر المآسي والحروب، وهو سؤال لا يمسّ الإيمان بقدر ما يكشف عن توقّ إنسانيّ للعدل الإلهي، وعن رغبة صادقة في فهم آليات تحقق هذا العدل في عالمٍ تحكمه السنن.

أولاً: التأسيس القرآني... سننٌ إلهية حاكمة لا تُخرق

يقدم القرآن الكريم رؤيةً للعالم قائمة على نظامٍ دقيق من "السنن الإلهية"، لا على الخوارق المستمرة أو التدخلات الاستثنائية المنفلتة، فالله سبحانه يدير الكون وفق قوانين ثابتة تحكم حركة الأفراد والمجتمعات والتاريخ، بحيث لا يقع النصر أو التغيير خارج هذا الإطار، وفي هذا السياق، تأتي الآية الكريمة: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" لتؤسس لفلسفة قرآنية عميقة مفادها أن التغيير الخارجي مشروط بتحول داخلي، وأن الفعل الإلهي في نصرة الأمم لا ينفصل عن وعيها وسلوكها، فالتدخل الإلهي ليس غائبًا، لكنه يجري عبر الإنسان لا بمعزل عنه.

ويعرّز هذا المعنى قوله تعالى: "أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم...". حيث تكشف الآية أن طريق النصر محفوف بالابتلاءات المادية والنفسية، حتى يبلغ المؤمنون مرحلة التساؤل الوجودي: "متى نصر الله؟"، وهي ذروة الامتحان، غير أن الجواب القرآني لا يأتي على شكل تدخل إعجازي فوري، بل بتأكيد أن النصر قريب، ولكن وفق شروطه وسننه، وهذا يكشف أن التأخر الظاهري للنصر ليس غيابًا له، بل هو جزء من مسار تكويني يُنضج شروط تحققه.

ويؤكد القرآن على ثبات هذه السنن وعدم خضوعها للاستثناء، بقوله تعالى: "فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً"، مما يعني أن القوانين التي تحكم النصر والهزيمة لا تتغير حتى لأجل المؤمنين إن هم خالفوا مقتضياتها، ويتجلى ذلك بوضوح في أحداث التاريخ الإسلامي، حيث لم يُستثنَ المسلمون من نتائج مخالفتهم لشروط النصر، كما حصل في أحد، مما يدل على أن الإيمان وحده لا يكفي ما لم يُترجم إلى التزام عملي بالسنن.

ومن هنا، تتضح العلاقة التكاملية بين الإرادة الإلهية والفعل الإنساني، فالقرآن يقرّر أن "وما النصر إلا من عند الله"، لكنه في الوقت نفسه يأمر: "وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة"، فيجمع بين المصدر الإلهي للنصر والشرط الإنساني لتحقيقه، فالله هو المانع، لكن الإنسان هو الذي يهتئ القابلية وبذلك، فإن "التدخل الغيبي" لا يُلغى، بل يُفهم بوصفه فعلاً يجري ضمن منظومة الأسباب، لا خارجها.

كما يبرز الابتلاء كشرط أساسي للتمكين، إذ يقول تعالى: "ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين"، أي حتى يظهر ذلك في الواقع العملي الذي تترتب عليه النتائج، فالابتلاء ليس عائقًا أمام النصر، بل هو عملية إعداد له، يكشف من خلالها صدق الإيمان، وتُبنى فيها القابلية الحقيقية للتمكين. ومن هنا، فإن تأخر النصر لا يُعد فراغًا أو غيابًا، بل مرحلة تكوينية ضرورية.

أما ما يُتوهم من تعارض بين عدم التدخل الفوري والعدالة الإلهية، فيعالجه القرآن من خلال مفهوم "الإمهال"، كما في قوله تعالى: "ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون..."، حيث يبيّن أن تأخير العقوبة ليس غفلة، بل جزء من نظام العدالة الإلهية الذي يقوم على إعطاء الفرصة، وإقامة الحجة، وتراكم النتائج، فالعدل الإلهي لا يُقاس بلحظته الآنية فقط، بل يمتد في الزمن، وقد يتجلى في الدنيا أو يتكامل في الآخرة.

وخلاصة هذا التأميل القرآني أن الإنسان ليس متلقياً سلبياً للقدر، بل شريكاً في صناعة المصير، فالنصر في المنظور القرآني ليس معجزة تُمنح، بل نتيجة تُبنى من خلال التفاعل بين السنن الإلهية والفعل الإنساني، وعليه، فإن غياب التدخل الغيبي المباشر لا يعني غياب الله، بل يعني حضوره الأعمق من خلال القانون، ودعوته للإنسان أن يتحمل مسؤوليته، وينتقل من موقع الانتظار إلى موقع الفعل.

ثانياً: الشواهد التاريخية... الأنبياء بين المحنة والنصر المؤجل

يقدم التاريخ الديني كما يعرضه القرآن الكريم لوحة عميقة لحركة الرسائل، لا بوصفها مسارات سريعة نحو النصر، بل بوصفها تجارب طويلة من الابتلاء والتأجيل والتدرج في تحقق الوعد الإلهي، وهذا البعد الزمني في النصر ليس تفصيلاً عارضاً، بل هو جزء من السنن التي تحكم فعل الله في التاريخ، فالنبي نوح عليه السلام يمثل النموذج الأبرز لطول أمد الدعوة مع قلة الاستجابة، إذ يصرح القرآن: "قلبت فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً"، وهي مدة تكاد تختصر معنى الصبر الرسالي، ومع ذلك، لم يتحقق النصر الاجتماعي للدعوة في حياته بالشكل الظاهر، بل بقيت الاستجابة محدودة جداً، حتى انتهى الأمر بالطوفان، وهنا، لا يظهر التدخل الغيبي بوصفه إنقاذاً فورياً من معاناة الدعوة، بل كخاتمة لمسار طويل من إقامة الحجة واستنفاد كل وسائل الإصلاح، فالتأخر لم يكن عجزاً، بل كان استكمالاً لشروط العدالة الإلهية.

أما النبي إبراهيم عليه السلام، فتجربته تكشف بُعداً آخر، وهو بلوغ الابتلاء ذروته قبل حصول الفرج، حين أُلقي في النار، لم يُنقذ ابتداءً من أصل المحنة، بل تُرك ليواجهها حتى أقصى درجاتها، ثم جاء التدخل الإلهي: "قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً" إن دلالة هذا المشهد عميقة، فالله لم يمنع وقوع الحدث، بل تدخل في لحظته الحاسمة، بعد أن اكتملت دلالاته الاختبارية والرمزية، وكأن السنّة الإلهية هنا تقول: إن النجاة ليست إلغاءً للامتحان، بل تتويجاً له بعد تمامه.

وفي سيرة النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، تتجلى هذه السنن بوضوح تاريخي أشد التصاقاً بالواقع، فقد عاش المسلمون في مكة مرحلة قاسية من الاستضعاف: تعذيب، حصار، مقاطعة، واستهزاء، حتى بدا المشهد وكأن الباطل متغلب بلا منازع، ومع ذلك، لم ينزل النصر بصورة إعجازية تُنهي المعاناة فوراً، بل تأخر حتى تحققت شروطه: تكوّن جماعة مؤمنة صلبة، ووجود حاضنة اجتماعية في المدينة، ونضج الوعي الرسالي، عندها فقط بدأ التحول التاريخي، فالهجرة لم تكن مجرد انتقال جغرافي، بل كانت

انتقالاً من طور الاستضعاف إلى طور الفعل، ومن ثم جاء النصر في سياقٍ تراكمي، لا دفعي. إن هذه النماذج الثلاثة، رغم اختلاف سياقاتها، تلتقي في حقيقة واحدة: أن التدخل الغيبي لا يأتي عادةً لإلغاء مسار الألم من بدايته، بل ليحسمه في نهايته، بعد أن يؤدي دوره في التمحيص والبناء. فالله لا يعجل النتائج قبل اكتمال مقدماتها، ولا يمنح النصر قبل تحقق قابليته. وبذلك، يتضح أن تأخر النصر في التاريخ الديني ليس فراغاً في العناية الإلهية، بل امتلاءً بالحكمة، إذ يُراد للإنسان أن ينضج في قلب المحنة، وأن تتشكل الجماعة المؤمنة عبر التحدي، لا في غيابه، ومن هنا، فإن التدخل الغيبي يأتي في "اللحظة المفصلية" التي تتقاطع فيها الإرادة الإنسانية مع تمام السنن، فيتحوّل المسار من اختبارٍ إلى تمكين.

ثالثاً: الرؤية الروائية عند أهل البيت... الغيب المشروط بالفعل

تقدّم روايات مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) معالجةً عميقة لمسألة النصر الإلهي، بوصفه نتيجةً منضبطة ضمن سنن وقوانين، لا حدثاً عشوائياً أو تدخلاً منفصلاً عن الواقع البشري، فهي تنقل الفهم من دائرة التميّي والانتظار السلبي إلى دائرة المسؤولية والفعل، وتؤسس لرؤيةٍ يكون فيها الإنسان شريكاً في تحقق الوعد الإلهي.

في هذا السياق، يُنقل عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: "لا يُدرك الحق إلا بالجد"، وهي عبارة تختصر فلسفة كاملة في العمل الرسالي، إذ تنفي أن يكون الحق كافياً بذاته ليفرض حضوره في الواقع، ما لم يُحمل بإرادةٍ جادةٍ وسعيٍّ متواصل، فالحق، في المنظور العلوي، ليس فكرةً مجردة، بل مشروع يحتاج إلى من يجسّده ويضحيّ لأجله، وهذا يعني أن تأخر النصر لا يعود دائماً إلى قوة الباطل، بل قد يرتبط بضعف حاملي الحق في مستوى الجدية والاستعداد.

ويُعزّز هذا المعنى ما روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: "إن الله أبقى أن يجري الأمور إلا بأسبابها"، وهو نصٌّ يؤسس لقاعدة فلسفية-كلامية بالغة الأهمية، مفادها أن الفعل الإلهي في العالم لا يجري على نحوٍ اعتباطي، بل ضمن شبكة من العلل والوسائط، فحتى النصر، مع كونه من عند الله، لا يتحقق إلا عبر أسبابه: وعي، إعداد، صبر، وتنظيم، ومن هنا، فإن انتظار النصر دون بناء أسبابه هو في حقيقته خروج عن السنن الإلهية، لا تعبير عن التوكل.

إن هذه الرؤية الروائية تنسجم مع ما يطرحه علم الكلام الإمامي من رفض "الجبر" الذي يلغي دور الإنسان، ورفض "التفويض" الذي يعزل الله عن فعله، لتؤسس بدلاً من ذلك لمبدأ "الأمر بين أمرين"، حيث يتكامل الفعل الإلهي مع الاختيار الإنساني. فالله هو الفاعل الحقيقي، لكن فعله يتجلى عبر الإنسان، لا بديلاً عنه.

ويتجلى هذا الفهم بوضوح أكبر في قضية الانتظار المهدوي، التي تُعدّ من أبرز مفاصل الفكر الإمامي. فظهور الإمام المهدي (عجل الله فرجه)- وهو التعبير الأقصى عن التدخل الغيبي في مسار التاريخ- لا يُقدّم في الروايات كحدثٍ منفصلٍ عن الواقع البشري، بل كتحوّلٍ مشروطٍ بوجود "القاعدة الصالحة"، وهذه القاعدة لا تُفهم عددياً فحسب، بل نوعياً: وعياً، وولاءً، واستعداداً للتضحية، وقد ورد في مضامين الروايات ما يشير إلى أن غياب هذه القاعدة هو أحد أسباب تأخر الظهور، ما يكشف عن أن الغيب نفسه ينتظر الإنسان، لا أن الإنسان ينتظر الغيب فقط، فالتدخل الإلهي الأكبر في التاريخ لا يقع في فراغ، بل في بيئةٍ مهيأةٍ لاستقباله وحمايته.

ومن هنا، يمكن قراءة "عدم التدخل الغيبي" في بعض المراحل- بوصفه تعبيراً عن خللٍ في الشروط، لا غياباً في الإرادة الإلهية، فالله، وفق هذه الرؤية، لا يمنع النصر عن عباده، لكنه لا يمنحه خارج سننه، لأن في ذلك إلغاءً لوظيفة الإنسان في الاستخلاف.

إن العمق الذي تقدمه روايات أهل البيت عليهم السلام يتمثل في إعادة توجيه السؤال: ليس "لماذا لا ينصرنا الله؟" بل: "هل بلغنا مستوى الاستعداد الذي يجعلنا أهلاً لنصره؟" وبهذا التحول، تنتقل الأمة من موقع الاحتجاج إلى موقع المراجعة، ومن انتظار الحدث الغيبي إلى صناعة شروطه.

رابعاً: التحليل الفلسفي... بين القدرة الإلهية والحكمة

فلسفياً، لا يُفهم عدم التدخل الغيبي على أنه عجز- تعالى الله عن ذلك- بل على أنه تعبير عن الحكمة، فالعالم، وفق الرؤية التوحيدية، ليس فوضى، بل نظام محكم قائم على العلة والمسببات.

لو كان التدخل الإلهي مباشراً في كل ظلم، لانتفى:

- معنى الاختيار الإنساني.
- قيمة المسؤولية.
- جدوى الابتلاء.

إن الله، في حكمته، لا يلغي دور الإنسان، بل يمنحه فرصة ليكون فاعلاً في تحقيق العدل، فالتدخل الغيبي المستمر يحوّل الإنسان إلى كائنٍ سلبي، بينما غيابه الظاهري يدفعه إلى الفعل.

خامساً: البعد الاجتماعي... صناعة النصر لا انتظاره

من منظور علم الاجتماع، فإن المجتمعات التي تنتظر الخلاص الخارجي دون أن تبني شروطه الداخلية تبقى أسيرة الضعف، أما المجتمعات التي تتحرك وفق وعيٍ ومسؤولية، فإنها تُفعل "السنن الإلهية" لصالحها.

إن فكرة "عدم التدخل الغيبي" قد تتحول- إن أسوء فهمها- إلى مبرر للركون، لكنها في حقيقتها دعوة للحركة.

فإلله لا ينصر أمةً:

- فاقدة للوعي.
- مفككة الإرادة.
- غارقة في التناقضات.

بل ينصر أمةً:

- تعرف حقها.
- تتحمل مسؤوليتها.
- وتتحرك ضمن مشروع واضح.

سادسًا: قراءة تكاملية... الغيب يعمل من خلال الإنسان

إن الغيب، في المنظور الإسلامي، لا يعمل خارج العالم، بل من خلاله. فالله ينصر عباده، لكن عبر:

- وعيهم.
- صبرهم.
- تضحياتهم.

وحين تتكامل هذه العناصر، يتحقق النصر بوصفه نتيجة طبيعية، لا معجزة طارئة. ولذلك جاء النداء القرآني: "متى نصر الله؟ ألا إن نصر الله قريب" ليؤكد أن القرب ليس زمنيًا فقط، بل مرتبط باكتمال الشروط.

الخاتمة

من سؤال الألم إلى وعي السنن

إن السؤال عن غياب التدخل الغيبي ليس اعتراضًا، بل دعوة للفهم، فإله حاضر دائمًا، لكن حضوره لا يُقاس بالخوارق، بل بعمق السنن، وحين يدرك الإنسان أن النصر لا يُمنح بل يُصنع، وأن الغيب لا يُلغي دوره بل يفعله، يتحول من متسائلٍ قلق إلى فاعلٍ مسؤول.

وهنا تتجلى الحقيقة الكبرى:

ليس الغيب غائبًا... بل نحن المطالبون بأن نكون جسوره في الأرض.



تأسس مركز الفيض العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية في بغداد بموجب شهادة التسجيل الصادرة عن الأمانة العامة لمجلس الوزراء -دائرة المنظمات غير الحكومية المرقمة (1J775330) بتاريخ ٢٦/٤/٢٠١٢، وهو مركز علمي بحثي يهتم بإجراء الاستطلاعات والدراسات الميدانية فضلا عن إعداد الأوراق البحثية والمقالات حول قضايا الحياة المجتمعية للأسرة والمواطن، والدولة بمؤسساتها المختلفة.

- لا يجوز نشر أي من إصدارات المركز ونتاجاته العلمية الا بموافقة خطية صريحة، ويمكن الاقتباس بشرط ذكر المصدر كاملا.
- لا تعبر الآراء الواردة في الدراسات او الاوراق البحثية والمقالات عن الاتجاهات الفكرية التي يتبناها المركز وانما تعبر عن رأي كاتبها.
- حقوق الطبع والنشر محفوظة لمركز الفيض العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية

للتواصل

00964- 7710122232



Alfaiidcenter2011@gmail.com



www.al-faidh.com



العراق - بغداد - الكرادة

